بين المؤرخ والمصدر

د. حسين على المسري

كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة الكويت.

المقدمة

إن العلاقة بين المؤرخ والمصدر علاقة وثيقة وحميمة، فالمؤرخ هو الذي صنع المصدر ودون فيه الأحداث التاريخية عن الأوائل والأواخر. فقيمة المصدر وأهميته إذاً تكمن في المؤرخ ومتوقفة عليه، فالعلاقة بينهما متبادلة وكلاهما يكمل الآخر.فإذا ما كان المصدر ذو قيمة ومنفعة فإنه يعكس ولا ريب صورة المؤرخ العفيف الصادق الأمين الذي دون هذه الأحداث .

ولكن حتمية الواقع تقول: أن من طبيعة الإنسان تأثره بمحيطه الذي يعيش فيه شاء أم أبى. سواء كان هذا التأثر على الصعيد الديني أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي، يتأثر في هذا المحيط سلباً وإيجابا. يمتلكه كم من هذه النزعات، فيكون في الغالب حبيسها ، فهي التي تسيره، وهى التي تعكس سلوكه.

ونلاحظ أن التوازن قد ينعدم بين هذه النزعات لدى بعض الأفراد ، فيسود لديهم مبدأ الإفراط والتفريط، ففي مثل هذه الأجواء تغيب العدالة والموضوعية وتضيع معها الحقيقة.

فالمؤرخ الذي يكتب لنا التاريخ هو جزء من هذا المجتمع يتأثر بمحيطه، فيتبنى مثل هذه النزعات والأفكار ، أو ربما تمتلكه إحدى هذه النزعات وتسيطر على ذاته ووجدانه فيصبح منقاداً لها ، أسيراً لها ، هي التي تسيره ولا يرى الأشياء إلا من خلالها ، فيرى أنها هي الحق، وهى المعيار الذي يقيس عليها الأشياء، وهى الأداة التي يميز بها الخبيث من الطيب.

إذا ماذا عسانا أن نتوقع من مؤرخ يكتب لنا التاريخ من هذا المنظور المنحاز!!، وأي نوع من التواريخ الذي سوف يصل إلينا؟ بلا شك إنه تاريخ منحاز تنعدم فيه الأمانة والموضوعية والعدالة، لأن المؤرخ قام بتطويع أحداث التاريخ بما يتفق وهواه وميوله ومذهبه الذي يتبناه، ومن الطبيعي أنك في هذه الحالة سوف لا تجد للحقيقة التاريخية مكانا في مثل هذه التواريخ.

ومن العوامل التي تعبث في الحقيقة التاريخية، عامل السلطة، فالسلطة، هي صاحبة النفوذ الواسع، ولديها من الإمكانات ما يساعدها على طمس الحقائق التاريخية، وتسيير أحداث التاريخ حسبما تريد وبما يتفق ومصالحها.

لذلك فإن هناك الكثير من الحقائق التاريخية قد كان لها وجود في عصر ما ، ولكن لسبب أو لآخر نجد أن هذه المعلومة قد اختفت وضاع رسمها في عصور تاليه لهذا

العصر. ومن ذلك نستطيع القول: أن معظم الحقائق التاريخية لم تصل إلينا صافيه المعين، بل قد شوهت معالمها لأنها تعكس آراء من كتبوها الذين قد انساقوا وراء أهوائهم وميولهم الشخصي.

وقد قمنا هنا، بمحاولة لعمل دراسة نقدية وتحليليه لبعض المصادر التي من خلالها نستطيع رصد مثل هذه التجاوزات والاعتداءات على حقائق التاريخ. وباللّه التوفيق .

1 – عوائق تقف في وجه الحقيقة التاريخية:

لعله من أوائل الصفات التي ينبغي أن تتجسد في ذاتية الباحث أو المؤرخ، هو حبه للدرس والصبر على البحث والتنقيب، فإن الحب والصبر هما السلاحان اللذان يمكنان المؤرخ من مواصلة السير في الطريق مهما كان هذا الطريق وعراً (عثمان، ح. 1965: 18).

والإنسان بطبيعته قد خلقت فيه عده غرائز ونوازع، مثل: الحب والكره، فماذا عسى المؤرخ أن يفعل ويتعامل مع أحداث التاريخ؟ هل ينساق وراء عواطفه ونوازعه والتي من بينها الحب والكره؟ هل أن هذه النوازع هي التي تسيره فيصبح حبيساً لإرادتها؟ انه لعمري لمحك صعب، قلما ينجو منه الناجون من المؤرخين والباحثين بسلام. فالأمر صعب وخطير، فمن منا لم تسيره عواطفه ونوازعه، إلا ما رحم ربي.

وكأننا في هذه الحالة، قد أوصدنا الأبواب أمام الحقيقة من أن تصل إلينا سالمة ودقيقة وصافية ونقية من الشوائب. نحن نعترف أن الطريق لشاقة وملبدة بالكثير من المغريات، منها ما هو مادي ومعنوي، هذه المغريات ليست بسهله الاجتياز، بل هي من الصعوبة بمكان وقلما يصمد أمامها المؤرخ.

نرى أن الذين كتبوا تاريخنا في جميع مراحله ومازالوا يكتبونه إلى هذه الساعة، قد انساقوا وراء عواطفهم ولبوا نداء نوازعهم، هذه النوازع تأخذ أشكالا متعددة، منها على سبيل المثال: المذهبية، العرفية، الوطنية، ومنها ما يهدف إلى الكسب المادي، أو السعي للحصول على منصب اجتماعي، أو التملق للسلطان، أو الخوف من السلطان أو لإرضاء طائفة أو الكيد لأخرى. ناهيك عن السلطة ومالها من دور في العبث بأحداث التاريخ وطمس الكثير من حقائقه التاريخية وتشويه معالمه، بما يتفق ويرضي هوى هذه السلطة.

كل هذه الآفات والمعوقات التي أشرنا إليها كانت على حساب الحقيقة التاريخية، فالذين كتبوا التاريخ بهذا الأسلوب وهم متلبسين بهذه العواطف والنزعات قد شوهوا معالم الحقيقة التاريخية وأبعدوها عن الواقع والمنظور التاريخي.

2 – ما ينبغي أن يكون عليه المؤرخ:

ولحل هذه الإشكالية الخطيرة أو المساهمة في حلها، علينا أن نعود ونلجأ إلى أساسياتنا وثوابتنا النابعة من قيمنا ومفاهيمنا الروحية. فمن أولويات هذه الأمور التي يجب أن يتخلق بها المؤرخ وتكون منصهرة في ذاته ووجدانه ومتجسدة في روحه، هي "التقوى". فإذا ما تحلى المؤرخ بهذه الصفة الحميدة انعكس ذلك على عطائه وإنتاجه العلمي، وينسحب أيضاً على سلوكياته الروحية والاجتماعية .

و"التقوى" إذا ما التزم بها الباحث المؤرخ، فإنها تعوده على الأمانة والدقة والموضوعية في عمله وفي علاقاته مع ربه ومع مجتمعه. فيصبح عضواً صالحاً ومفيداً في المجتمع، لأنه يحمل بين جنبيه سلاح "التقوى" الذي يحميه من الأمراض والآفات والنوازع الضارة التي قد تكون منتشرة في مجتمعه (المسري، ح. 2000: 117- 118).

ومن الصفات الحميدة التي ينبغي أن يتخلق بها المؤرخ "الأمانة"، فهي تعد عنصراً هاماً في العملية التاريخية برمتها. فإذا ما تجسدت هذه الصفة في ذاتية المؤرخ فإنها بطبيعة الحال سوف تنعكس على عطائه وإنتاجه العلمي، وبالتالي سيكون هذا الإنتاج بالغ الدقة والموضوعية والأمانة (أنجلوا، و. 1981: 44).

ولعله من الأمثلة على دور "الأمانة" في العملية التاريخية، هو إيصال الحقيقة والمعلومة التاريخية صادقة. إن المؤرخ كثيراً ما يتعرض أثناء دراسته لبعض النصوص التاريخية التي تتعارض مع فكره وعقيدته ولا تتفق مع مبدئه، فماذا عساه أن يفعل حيث لا رقيب عليه إلا ضميره؟ .

فعليه والحالة هذه، أن يقول الحقيقة ويكتبها، ويحترم رأي من سطرها وآمن بها، إن كان مؤرخاً أميناً وصادقا. وإن لم يفعل فلا يحسب في عداد المؤرخين، بل يمكن أن نصفه بأنه مؤرخ منحاز يخفي الحقيقة، غير أمين، ويُطَيِّع أحداث التاريخ وفق ما يريده هو وبما يناسب هواه وميوله ومعتقده. فهو في هذه الحالة يُخضع الحقيقة التاريخية لرأيه لا بما يريده الواقع والمنظور التاريخي. فيكون بذلك قد ضلل من يريد أن يقرأ التاريخ .

إن إخفاء الحقيقة التاريخية وتغييبها عن الساحة العلمية من الأمور الخطيرة وفيها من الآثار السلبية، حيث أن التاريخ سوف يفقد قيمته كتاريخ. ولم يعد التاريخ ذلك المثل الأعلى والقدوة الحسنة والتي يفترض بها وعلى ضوئها نُبْصِرُ الطريق ونتوصل إلى الحقيقة الصادقة الأمينة.

ومن صور "الأمانة" في العملية التاريخية "الأمانة" العلمية، أي بمعنى أن يكون المؤرخ أميناً فيما يكتب وينقل ويؤلف. فلا ينقل معلومة أو نصاً تاريخياً لغيره ويدعيه لنفسه ومن بناة أفكاره، فهذه سرقة، والسرقة صفة ذميمة لا يجوز أن تنسب وتلصق بالمؤرخ الذي يفترض أن يكون أميناً وصادقاً، فهو أسمى من أن تلصق به مثل هذه التهم، لأنه يمارس عملاً شريفاً فهو القدوة والمثل الأعلى.

ومن صفات المؤرخ الناجح أن تكون لديه القدرة على النقد ومعرفة الجيد من الرديء، والغث من السمين، من المصادر التي يطلع عليها ويقرأها. هذه الصفة لا تتولد في ذاتية المؤرخ إلا بعد مروره بخبرات ومعارف ودراية بأمور التاريخ ووقائعه وأحداثه، عند ذلك يكون ملماً أو يكاد بأحداث التاريخ من جراء ما يقوم به من مقارنه ومقابلة لما يقرأ من المصادر والوثائق والمخطوطات.

هذه الخبرة التي توصل إليها المؤرخ، تكون له سلاحاً قوياً يمكنه من تمحيص وتشخيص المصادر لمعرفة قيمة كل مصدر. وهذا بالتالي سوف يوصله إلى معرفة الحقيقة التاريخية مهما حاول المزيفون إخفاءها والتلاعب بها.

من ذلك نستطيع القول أن "ملكة النقد" عنصر هام وضروري في مدرسة التاريخ وفي العملية التاريخية، فبدونها لا نستطيع أن نميز بين الحقيقة وبين الضلال أو بين التاريخ الصحيح والتاريخ المزيف، فهي من الأدوات الهامة التي يتوصل إليها المؤرخ ويعمل به. فإذا ما كُتِبَ لِمَلَكة النقد هذه أن تظهر على الساحة وتنتشر بين أوساط المؤرخين، ويعملون على تطبيقها في أبحاثهم ودراساتهم، فإنه سوف يكون لها الأثر الطيب على العملية التاريخية وتطورها، ومن ثم سوف يؤدي ذلك إلى انحسار الزيف عن الكتابة التاريخية.

كذلك فإن الدراية الواسعة بأمور التاريخ وأحداثه وقضاياه تفيد المؤرخ في معرفة الأحداث من حيث تسلسلها الزمني والمكاني، وتمكنه من الربط بينها على اتساق وتوافق. وبدون ذلك سوف تضطرب عليه الأمور وتختلط الحوادث مما يجعله عاجزاً عن الربط بينهما، وهذا بالتالي سوف يفقده صفه المؤرخ الواعي (عثمان، ح. 1965: 19).

ومن الصفات التي ينبغي أن يتخلق بها المؤرخ "العدالة"، أي بمعنى أن يكون عادلاً في أحكامه وفي تعامله مع أحداث التاريخ وقضاياه. فالمؤرخ بمثابة القاضي الذي يفترض أن تتجسد فيه صفات "العدالة" والاستقامة والنزاهة بعيداً عن الميل والهوى.

إن تطبيق مبدأ "العدالة" في العملية التاريخية له مردود طيب ونتائج إيجابية على تدوين التاريخ. إن " العدالة " هي الحصانة ضد آفات الزيف والتدليس في الكتابة التاريخية.

ومن هذا المنطلق نقول: على المؤرخ ألا يتعاطف مع من يحب أو يكره، وعليه كذلك أن يتجرد من الانبهار بالقادة والشخصيات المراد الكتابة عنهم فينزههم من الأخطاء، أو العجب في عصر أو كراهة عصر (عثمان، ح. 1965: 19). فإذا ما تلبست مثل هذه العواطف بشخصية المؤرخ انعكس ذلك على كتابته، فتكون بعيدة عن الصواب وعن الدقة والأمانة والموضوعية، بل هي أقرب إلى الضلال والتحيز.

فإذا ما كان الأمر كذلك، فأي نوع من التواريخ سوف يصل إلينا. لذلك نقول: إن "العدالة" عنصر هام وركيزة أساس في العملية التاريخية، ولمن يريد أن يكتب التاريخ بأمانة.

ومن الأمور الأساسية في الكتابة التاريخية والتي يجب على المؤرخ مراعاتها والالتزام بها وتطبيقها في أبحاثه، هو أن يعيش حياة العصر المراد الكتابة عنه. يعيش فيه بكل أحاسيسه مدركاً لكل أبعاده الروحية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ويجعل من نفسه جزءًا من ذلك العصر وشاهد عيان عليه، وليس ذلك بالأمر الهين، حيث لا يتم ذلك إلا بممارسة وجهد كبير ليصل المؤرخ إلى هذه المرتبة.

فإذا ما تحقق للمؤرخ ذلك أصبح قريباً من الواقع التاريخي لذلك العصر، عارفاً بدقائق أموره وبأسبابها ومسبباتها، ويكون ضليعاً ومهيمناً على جميع أحداثه. هذه الميزة التي توصل إليها المؤرخ سوف تنعكس بلا شك على نوعية كتاباته، حيث أنها سوف تتصف بالدقة والصدق والواقعية، معبرةً عن روح ذلك العصر بكل إبعادها.

وهذه بعض الأمثلة: فإذا ما أراد المؤرخ أن يتحدث عن غزوة بدر مثلاً أو الفتنة في عهد الخليفة عثمان، وبناء بغداد في عهد أبو جعفر المنصور، ونكبة البرامكة، وسقوط بغداد، وصلاح الدين ونابليون (عثمان، ح. 1965: 19)، يتناول هذه الأحداث التاريخية بدراية وخبرة وبرؤية فاحصة يتمكن بواسطتها من استخلاص الحقائق التاريخية التي من خلالها يتوصل إلى معرفة الأسباب والدوافع والإبعاد والنتائج لهذه الأحداث.

3 - السنن التي تقيد أحداث التاريخ: -

ومن مزايا هذا المنهج، واعني بذلك، منهج المؤرخ الذي يعيش في حياة العصر الذي يريد الكتابة عنه، أنه يتوصل إلى حقائق ونتائج هامة. منها أنه يولد لديه شعوراً وإحساسا بأن أحداث التاريخ تسير وفق أسس وقواعد وقوانين، وأن هناك منهج متكامل تسير على ضوءه العملية التاريخية .

كما أن المؤرخ الذي يسير وفق هذا المنهج، يدرك بان هناك توزان بين عناصر الحدث التاريخي، فإذا ما حدث خلل بين جزئيات هذه العناصر وطغى عنصر على أخر اختل نظام هذا البرنامج، وانعكس ذلك على العملية التاريخية برمتها .

ولو نظرنا مثلاً إلى أي ثورة أو تغيير حدث في التاريخ، وقمنا بدراسة جميع أبعاده بدقة وتفحصنا أحداثه، فإننا حتماً سوف نجد أن هناك خلل قد أصاب أحد عناصره، هناك خلل قد أصاب جانباً من جوانب حياة هذه الأمة، فإن هذا الخلل هو المسئول الأول وراء هذا التغيير ووراء هذه الثورة .

ولنقل مثلاً أن هناك فساد في الجانب الروحي أو الاقتصادي أو الاجتماعي في حياة أمة ما، عندئذ تصبح الحاجة ملحة إلى التغيير. إن الأمة في هذه الحالة تتحرك لإصلاح هذا الفساد، والعمل على تغييره وتصحيح مساره بما ترى أنه مناسباً لها. ولا يتم هذا التغيير والإصلاح إلا إذا تهيأت الظروف لذلك.

وقس على ذلك في أي فعل تاريخي، فغزوة بدر مثلاً ما كان لها أن تحدث لو لم تتهيأ لها الظروف الروحية والعسكرية لدى المسلمين. إن المسلمين الآن قد امتلكوا أداة التغيير، فأصبحت الحاجة إذاً ملحة إلى التغيير والإصلاح وتصحيح المسار وفق المنهج الذي يريده الله سبحانه وتعالى. خاصة وأن الأمة التي تحيط بالمسلمين تعيش في ضياع روحي واجتماعي واقتصادي، فأراد الإسلام أن ينتشل هذه الأمة من هذا الضياع، ينتشلها من هذا المستنقع، من هذه العبادات الرخيصة المتخلفة، من عبودية الإنسان للإنسان، ومن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتخلفة ليغرس مكانها القيم والمفاهيم الحضارية التي نادي بها الإسلام(المسري، ح. 2000: 31) . من أجل ذلك وعندما تهيأت الظروف وامتلك المسلمون أداة التغيير والمبادرة حدثت غزوة بدر.

فالمسألة التاريخية إذاً وكما هو واضح، محكومة بقواعد وسنن وقوانين تسير أحداث التاريخ وفق نظامها ومنهجها. بمعنى أن هناك قضية شرطية تتحكم في الحدث التاريخي، أي أن فعل التغيير هنا مشروط، لا يحدث إلا بوجود المؤثر أو المغير (الصدر، م. 1980: 110- 111).

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، إلى مثل هذه السنن التاريخية (عويس، ع. 1994: 35). ففي الآيات الشريفة التي سوف نذكرها ما يؤكد على ذلك، قال الله تبارك وتعالى: (إن اللّه لا يُغيِّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم) (القرآن، الرعد: 11). لو تأملنا هذا النص القرآني لوجدنا أن هناك قضية شرطية لولاها لما حدث الفعل التاريخي، هناك قانون وسُنة، هناك ارتباط بين الفعل الأول والفعل الثاني، فلو لم يحدث الفعل الأول لم يحدث الفعل الثاني (الصدر، م. 1980: 111). فهذه قاعدة وسنة تاريخية يجب أن ندركها في جميع أجزاء العملية التاريخية. وقال اللّه تبارك وتعالى: (قَد خَلَتْ من قبْلِكُمْ سُنَنٌ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ المُكذبين) (القرآن، آل عمران: 137). وقال تعالى: (يُريد اللّه ليبين لَكُمْ ويَهْدِيكُمْ سُنَنَ من قبلِكُمْ ويتُوبَ عَلَيكُمْ واللّه عَليم "حليم") (القرآن، النساء: 26).

إن القرآن الكريم قد أكد على القضية الشرطية في الفعل التاريخي، أكد على هذه السببية التي تخلق الحدث التاريخي (الهاشمي، م. 1978: 134). قال اللّه تبارك وتعالى: (سُنَّةُ اللّه التي قد خلَتْ من قَبْلُ ولن تَّجِدَ لسُنَّة اللّه تبديلاً) (القرآن، الفتح:23).

هذه الحقائق والسنن التاريخية لا يتوصل إليها ويدركها إلا المؤرخ الذي يعيش عصر وزمان من يريد أن يكتب عنهم، بكل شعوره وكيانه، بل يغوص في أوساطهم حتى يتمكن من اكتشاف وإدراك هذه السنن، هذه الحقيقة الشرطية التي تخلق الفعل التاريخي، فمتى ما أدرك ذلك فإنه يعيش ويتعامل مع واقع تاريخي حي لا ميت.

4 – نماذج من كتابات المؤرخين الأوائل: -

إن المؤرخين القدماء الذين كتبوا عن فترة ما قبل الإسلام تفتقر كتاباتهم إلى الدقة والموضوعية والعقلانية (بروكلمان، ك. د.ت.: 7/3)، فضلاً عما يحدث بينهم من اختلافات كبيره في سرد الأحداث وفي تثبيت السنين والتواريخ. هذه الظاهرة قد لفتت نظر المؤرخ أبو الفداء فعلق عليها بقوله: "أنه ينبغي لمتأمل التواريخ القديمة، أن يعلم أن الاختلاف فيها بين المؤرخين كثيراً جداً". وقال في موضع آخر: "وأما ما يؤخذ عن المؤرخين قبل الإسلام فهو أيضاً مضطرب، لأنهم كانوا يؤرخون من ابتداء مُلْك كل من يتملك منهم فكثرت، ... وفسدت تواريخهم بسبب ذلك فساداً لا مطمع في إصلاحه، مع ما انضم إلى ذلك من بُعد العهد، وتغيّر اللغات لقدم الكتب المؤلفة في هذا الفن فصار تحقيق الكتب القديمة بسبب ذلك متعذراً أو في غاية التعسر" (أبو الفدا، إ. د.ت.: 11/1).

أما عصر الإسلام فالذي يطلع على كتابات المؤرخين الأوائل يري أن جل اهتمامهم كان منصباً على الجانب التجميعي (خليل، ع. 1986: 12)، والدخول في التفاصيل للمعارك ولغيرها من الأحداث. فكان هم المؤرخ إذا أراد أن يكتب أن يقدم تفصيلاً كاملاً للحادثة دون الإخلال بعنصر من عناصرها مهما كانت قيمته. ونادراً ما يلجئون إلى النقد والتحليل وذكر السبب، ويعتمدون في نقل الحدث على أكثر رواية، فهذا هو العرف السائد عند أغلب المؤرخين الأوائل.

ولعل هذه الصفة تكون أكثر وضوحاً عند الطبري، محمد بن جرير، في كتابه "تاريخ الأمم والملوك". ومعظم رواياته نقلها واعتمد فيها على سيف بن عمر، ويتهم العسكري سيف بن عمر بالتزييف والانتحال والتضليل وعدم الأمانة في كثير من كتاباته، ويقول: وأن الكثير من المؤرخين بعد ذلك قد نقلوا رواياتهم وأخبارهم عن الطبري (العسكري، س. 1983: 76/1ومابعدها).

واعتمد الطبري كذلك على كتابات محمد بن عمر الواقدي، وهو من المؤرخين النشطين والمتميزين، فله عدة مؤلفات يذكرها ابن النديم في كتابه "الفهرست"، ويصفه بأنه عالماً بالمغازي والسير والفتوح. ومن مؤلفاته: كتاب "المغازي"، وكتاب "طبقات الصحابة"، وكتاب "المشاهد في هاتين المدينتين المقدستين"، وكتاب "الردة"، وهناك قائمة طويلة من المؤلفات التي تخص الواقدي يذكرها ابن النديم (ابن النديم، م. د.ت.: 144)، (بروكلمان، ك. د.ت.: 15/3).

وكتاب "المغازي" ظهر في ثلاثة أجزاء ويتحدث فيه عن غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن سيرته العطرة، والذي يطلع على هذا الكتاب يتعرف على المنهج الذي سار عليه الواقدي في تأليف هذا الكتاب. فهو قبل أن يكتب عن أي حادثة، يذكر في البداية المصادر التي اعتمد عليها في تحقيق هذه المعلومة، فيضع قائمة بأسماء الرجال الذين اعتمد عليهم وأخذ عنهم هذه الأخبار، ثم يبدأ في الحديث عن الغزوات

الواحدة تلو الأخرى، ويذكر التاريخ المحدد لكل غزوة مع تحري الدقة في ذلك، ولم يغفل عن تحديد الموقع الجغرافي لكل غزوة (الواقدي، م. د.ت.: 31/1).

هذا المنهج الدقيق الذي سار عليه الواقدي قد لفت نظر كل من: الخطيب البغدادي وابن عساكر وابن سيد الناس وغيرهم من المؤرخين، فقد أشادوا بكتابات الواقدي، وبمنهجه ودقته في تدوين الأحداث التاريخية. وقد نقلوا في كتبهم بعض المقاطع لأقوال الواقدي نفسه يبين فيها منهجه في التأليف، يقول الواقدي: "ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء، ولا مولى إلا سألته: هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع حتى أُعاينه" (الواقدي، م. د.ت.: 6/1).

ومما يتميز به الواقدي في كتابه "المغازي" أنه لا يكتب عن غزوة إلا بعد قيامه بمعاينة الموقع الذي حدثت فيه هذه الغزوة، ومما يؤكد ذلك قول أحدهم: "رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة"(ركوة: إناء صغير أو قربة صغيرة من جلد). فقلت: أين تريد؟ قال: أريد أن أمضي إلى حُنين، حتى أرى الموضع والواقعة" (الواقدي، م. د.ت.: 6/1).

يتضح من ذلك وبشهادة المؤرخين، على أن الواقدي كان أميناً ودقيقاً في نقل المعلومة التاريخية، وكان يعتمد على أكثر من مصدر لكي يدون هذه المعلومة، فلم يكتف بسماع الخبر، بل كان يقوم بزيارة موضع الحدث ومشاهدته، فهو يرى أن هذه الزيارة ربما تفيده في تصحيح معلومة أو إضافة خبر جديد. وفي أثناء مقابلاته لم يكتف بمصدر واحد، بل كان يسأل أكثر من مصدر قبل أن يدون هذه المعلومة، بالإضافة إلى اعتماده على ما كتب في المصادر حول هذا الموضوع.

ربما ذلك يجعلك تشعر بالاطمئنان لبعض مؤلفات الواقدي، وعلى الأخص كتابه "المغازي". فإذا ما قرأت هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة تشعر بهذه الحالة من الاطمئنان، بإطلاعك على الأسلوب والطريقة التي سلكها الواقدي في جمع مادته العلمية من مصادرها العديدة .

ومن المؤرخين الأوائل، المسعودي، علي بن الحسين بن علي، فقد تحدث عن الذين كتبوا في التاريخ من المؤرخين السابقين والمعاصرين له، فذكر مؤلفاتهم، وأثنى على الكثير منهم وانتقد البعض الآخر.

لقد أشاد بمؤلفات محمد بن جرير الطبري، وعلى الأخص كتابة في التاريخ، ومما جاء في أقواله عنه: " وأما تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الزاهي على المؤلفات، والزائد على الكتب والمصنفات فقد جمع أنواع الأخبار، وحوى فنون الآثار ... وكيف لا يكون كذلك؟! ومؤلفه فقيه عصره وناسك دهره .... "(المسعودي، ع. 1973: 23/1).

وقد كان المسعودي يحترم التخصص ويؤمن به، ومن ذلك أنه انتقد سنان بن ثابت بن قرة حين ألف في حقل التاريخ، وهو ليس في مجال اختصاصه. فهذا التصرف لفت نظر

المسعودي فعلق عليه بقوله: "ورأيت سنان بن ثابت بن قرة الحراني – حين انتحل ما ليس من صناعته، واستهج ما ليس من طريقته- قد ألف كتاباً جعله رسالة إلى بعض إخوانه من الكتاب ... مضادة لرسم الأخبار والتواريخ وخروجاً عن جمله أهل التأليف وهو وإن أحسن فيه، ولم يخرجه عن معانية، فإنما عيبه أنه خرج عن مركز صناعته، وتكلف ما ليس من مهنته.." (المسعودي، ع. 1973: 25/1).

ويتحدث المسعودي كذلك عن ظاهرة الغش والتزوير والانتحال التي كانت متفشية بين أوساط المؤرخين، فقد نوه المسعودي إلى ذلك في كتابه "مروج الذهب"، وحذر المؤرخين المعاصرين له واللاحقين من العبث في كتابه. لقد أصدر المسعودي مجموعة من التحذيرات في هذا الصدد هذا نصها: "فمن حَرّف شيئاً من معناه، أو أزال ركناً من مبناه، أو طمس واضحة من معالمه، أو لبس شاهده من تراجمه، أو غيّره، أو بدّله، أو أشأنه (أشأنه: بمعنى أفسده، أي يفسد عملك. ابن منظور، أ. د.ت.: 230/13) أو اختصره، أو نسبه إلى غيرنا، أو أضافه إلى سوانا، فوافاه من غضب الله وسرعة نقمة وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره..." (المسعودي، ع. 1973: 27/1).

خاتمته، حتى تكون رادعاً لمن تسول له نفسه الاعتداء على حقوقه، وقد عبر عن ذلك بقوله: "وقد جعلت هذا التخويف في أول كتابي هذا وآخره، ليكون رادعاً لمن ميَّلهُ هوى، أو غلبه شقاء، فليراقب الله ربه وليحاذر منقلبه، فالمدة يسيره والمسافة قصيرة، والى الله المصير" (المسعودي، ع. 1973: 27/1).

وقد أقر المسعودي واعترف بما صدر عنه من تقصير وأخطاء وهفوات في رحلته الطويلة مع التاريخ، فهو يعتذر هنا إلى قرائه بقوله: "على أنا نعتذر من تقصير إن كان، ونتصل من إغفال إن عَرض، لما قد شاب خواطرنا، وغمرً قلوبنا، من تقاذف الأسفار وقطع الغفار..." (المسعودي، ع. 1973: 18/1).

أما أبو شجاع الروذراوري، محمد بن الحسين ظهير الدين، فإنه يتحدث عن منهجه في التأليف في كتابه "الذيل على كتاب تجارب الأمم" لابن مسكويه، ويقول: أنه اعتمد على النقل، ولكن لا ينقل من الروايات والأخبار إلا ما يرى بأنها صحيحة، واعتمد كذلك على المقابلات الشخصية. ومع ذلك، نراه يبرأ نفسه مما علق بكتابه من الأخطاء.

ويدعو الروذراوري المؤرخين إلى الأمانة والدقة والوعي أثناء قراءتهم للنصوص التاريخية، فقد أشار إلى بعض المؤرخين الذين يخفون الحقيقة لسبب أو لآخر، فمن ذلك قوله: " فأدعو الآن إلى ذكر ما أنا قاصده من الأخبار متبرئاً من عهدة ما أورده من الأخبار. لأني في كتاب التاريخ سطورها. فأختار بحسب المعرفة عقودها وميسورها. وما

عساه يندر من خبر شاذ تلقف من أفواه الرجال. وخلا التاريخ من ذكره إما بخفاء أو نسيان أو إغفال . فإنه يثبت في بواطنه وينظم مع قرائنه" (الروذراوري، أ. 1916: 5).

وقد أثنى وأشاد بمنهج أبو علي أحمد بن محمد مسكويه، وعلي حسن اختياره لموضوع كتابه القيم، المعروف "تجارب الأمم" (الروذراوري، أ. 1916: 5). ويتميز مسكويه بالأمانة، وقد دفعته أمانته أن يقول الحقيقة، فقد ألف كتابه أيام البويهيين ولم يهاب سطوتهم (خليل، ع. 1986: 37).

5 - ابن خلدون ينقد ويصنف المصادر:

يتحدث ابن خلدون في كتابه "المقدمة" عن التاريخ وعن قيمته وفائدته، ومن خلال هذا الحديث أشار إلى المنهج الذي سار عليه أسلافه من المؤرخين، فأثنى على البعض وانتقد البعض الآخر.

من المؤرخين المتميزين في نظره: محمد بن إسحاق، ومحمد بن جرير الطبري، ومحمد بن السائب الكلبي، ومحمد بن عمر الواقدي وغير أولئك .. فقد وصفهم بأنهم "من المشاهير المتميزين عن الجماهير" (ابن خلدون، ع. د.ت.: 4).

ومن الذين كانت لهم مآخذ عند ابن خلدون: المسعودي، والواقدي في بعض كتاباتهم، ويقول في هذا الصدد: "وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الإثبات ومشهور عند الحفظة الثقات". ولكن مع هذه المآخذ إلا أن عامه المؤرخين اللاحقين لهم قد اقتفوا أثارهم وساروا على نهجهم في التأليف (ابن خلدون، ع. د.ت.: 4).

ويقول أبن خلدون: أن الواقدي والطبري والمسعودي قد بدأو الكتابة في تواريخهم، منذ بدء الخليقة وصدر الإسلام حتى العصور التي عاشوها. وهذا يعنى أنهم تحدثوا عن جميع الأمم: العرب والفرس والروم والترك والهنود واليونان، فقد اتبعوا في ذلك منهج التاريخ العام. ويقول: وهناك من المؤرخين من كانت لهم كتابات خاصة، أي أنهم كتبوا عن مصر بعينه، ويذكر من هؤلاء: ابن حيان التوحيدي مؤرخ الأندلس، وابن الرفيق مؤرخ أفريقيا، فقد كتب عن تونس وعن غيرها (ابن خلدون، ع. د.ت.: 5).

وقد انتقد ابن خلدون من جاء بعد هؤلاء المؤرخين، لأنهم مقلدين لهم وغير مبدعين، فكل ما كتبوه لا يعدو عن كونه كلاماً مكررا. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أن البعض منهم قد شوه الكثير من معالم التاريخ وحقائقه، فقد وصفهم ابن خلدون بقوله: "ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مُقَلِّدُ، وبليد الطبع والعقل أو متبلد، ينسخ على ذلك المنوال، ويحتذي صوراً قد تجردت عن مواردها ... ومعارف تستنكر للجهل بطارقها وتلادها، إنما هي حوادث لم تعلم أصولها..." (ابن خلدون، ع. د.ت.: 5).

ويقول ابن خلدون بأن هناك صنف آخر من المؤرخين قد كتبوا التاريخ بصورة مختصره جداً ومخلة، فأصبح هذا التاريخ فارغاً من معناه ومحتواه وفائدته. واقتصرت كتاباتهم على ذكر أسماء من حكم من الملوك فقط، دون الإشارة إلى أعمالهم أو علاقاتهم في الداخل والخارج، ويضرب ابن خلدون أمثله من هؤلاء المؤرخين، ويقول: "كما فعله ابن رشيق في ميزان العمل، ومن اقتفى هذا الأثر من الهمل" (ابن خلدون، ع. د.ت.: 5).

وهناك فئة من المؤرخين قد نقلوا أحداث التاريخ عن أسلافهم دون أن يعملوا رأيهم فيه، فكان دورهم دور الناقل فقط، لم يتفاعلوا ويتحاوروا ويستنطقوا النص التاريخي. ولم يحاولوا أن يبعثوا الحياة في هذا التاريخ ليتعرفوا من خلاله على الظروف التي صنعته وأدت إلى حدوثه، ولم ينظروا إلى أبعاد الحدث وتداعياته التي يمكننا من خلالها فهم الحقيقة التي ربما توصلنا إلى استنباط قاعدة أو قانون يعيننا على فهم أحداث التاريخ ومعرفة أسبابها ومسبباتها.

إن هذه الفئة من المؤرخين ربما لا تمتلك الجرأة لسبب أو لآخر لأن تتفاعل مع النص التاريخي، أو لأنه ليس لديها من الإدراك والحس التاريخي لفعل ذلك. ولذا، فإنها قد أوصلت إلينا أحداث التاريخ ميتة لا حياة فيها.

وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الفئة من المؤرخين، واصفاً كيف كان تعاملها مع أحداث التاريخ بقوله: "الأخبار إذا أعتمد فيها على مُجَرّد النقل ولم تحكم أُصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب.." (ابن خلدون، ع. د.ت.: 9).

ويستمر ابن خلدون في نقده لهذا النهج موضحاً مساوئه وخطورته على العملية التاريخية، فيقول:"وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأُئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سيروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا الطريق عن الحق..." (ابن خلدون، ع. د.ت.: 9).

ومن المؤرخين من لم يكن دقيقاً ولا عقلانياً في نقل المعلومة التاريخية، فكان بعضهم يميل بطبعه إلى المبالغة في الوصف، لاسيما في إحصاء الأموال أو أعداد العساكر والقتلى، فتراه ينقل مثل هذه الأخبار التي يتحرج العقل والواقع من قبولها. وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الظاهرة التي سطرها بعض المؤرخين في كتبهم، فعلق عليها وانتقدها (ابن خلدون، ع. د.ت.: 9).

وعلى العموم، فإنه مما تقدم يتبين بأن معظم حقائق التاريخ لم تصل إلينا صافيه ودقيقة، فقد لعبت وعبثت بها الأهواء والمآرب، فشوهت الكثير من معالمها وطمست حقائقها، فوصلت إلينا وهي خاوية الأساس مضعضعة البناء، بسبب من قام بالدس والتزييف والانتحال فضاعت الحقيقة.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- ابن النديم، محمد بن إسحاق. (د.ت.). الفهرست، بيروت: دار المعرفة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (د.ت.). المقدمة، مصر: مطبعة مصطفى محمد.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. (د.ت.). لسان العرب، بيروت: دار صادر.
- أبو الفداء، إسماعيل بن نور الدين علي بن محمود. (د.ت.). المختصر في أخبار البشر، بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- أنجلوا، وسينوبرتس. (1981). النقد التاريخي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، الكويت: وكالة المطبوعات.
- بروكلمان، كارل. (د.ت.). تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم نجار، مصر: دار المعارف بمصر.
- خليل، عماد الدين. (1986). حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، الدوحة: دار الثقافة.
- الروذراوري، أبو شجاع محمد بن الحسين الملقب بظهير الدين. (1916م). ذيل كتاب تجارب الأمم، مصر: شركة التمدن الصناعية.
- الصدر، محمد باقر. (1980). المدرسة القرآنية، بيروت: .
- عثمان، حسن. (1965). منهج البحث التاريخي، مصر: دار المعارف.
- العسكري، مرتضى. (1983). عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، بيروت: .
- عويس، عبد الحليم. (1994). فقه التاريخ في ضوء أزمة المسلمين الحضارية، القاهرة: دار الصحوة.
- المسري، حسين. (2000). أساسيات الحضارة، الكويت: مكتبة الفلاح. المسعودي، علي بن الحسين بن علي. (1973). مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت: دار الأندلس.
- الهاشمي، محمد. (1978). الفكر العربي جذوره وثماره، الكويت: مكتبة الفلاح.
- الواقدي، محمد بن عمر. (د.ت.). المغازي، تحقيق مارسدن جونس، طهران: انتشارات اسماعليان.